المشرق

روسية : ارضها وسكّانها

نظر جغرافيّ وتاريخيّ للاب جبرائيل لوقنك اليسوعيّ مدرّس التاريخ في كليّة القديس يوسف

لا تكمل مقالاتنا السابقة في اليابان وكوريا ومنشوريا الّا بذكر الأمّة العظيمة التي هي اليوم قائمة بازاء تلك البلاد النازحة في الشرق الاقصى. ولقد كنّا باشرنا بوصفها لولا انّنا كنّا ننتظر احدث واجمع المؤلفات التي كُتبت في شأنها لنستخلص منها لبابها فنفيد بهِ القرّاء.

ا تعريف روسيّة

يروى لاسكندر الثالث قيصر الروس قولهُ « انّ روسية قارة سادسة للعالم » وهي كلمة تدلُّ على اباء وفخوة لكنّها صحيحة تثبتها الرسوم الجغرافية

روسية من اغرب بلاد الدنيا. ان قابلتها باوربّة وجدتها قليلة الشبه بها وان عارضتها بآسية تحقّقت انها تخالفها. وكذلك موقعها في الخارطة فانّ حدودها قليلة الوضوح لا تكاد تميّز اين تغورها من جهة اوربّة واين منتهاها من صوب آسية وان كانت افريقية لا تتّصل باوربّة سوى ببرزخ ضيّق فانّ آسية ملتحمة بها التحاماً واسعاً وليس جبل اورال مع قلّة علوّهِ وسعتهِ حاجزاً كافياً لفصل هذين العالمين. فانّ اواسط هذا الجبل يجاف فسيحة متساوية امّا جهتهُ الجنوبيّة المتّصلة ببحر قزوين فثغرٌ مفتوحٌ لا باب يقفلهُ وروسية في تركيبها اقرب الى آسية منها الى اوربّة. وبينما ترى اوربّة الغربيّة كثيرة الضلوع تقسمها جبالها المتعدّدة قطعاً صغيرة ترى روسية على عكس ذلك بلداً واسعاً

متشابه الجوانب والاوساط لا يحجز النظر في سهولها وصحاريها حاجزٌ من النجود والأغوار اللهمَّ الّا اورال السابق ذكرهُ . وان انحدرتَ شرقاً من مشارف هذا الجبل الى حوض نهر اوبي اتّسعت بك المهامه والفلوات كما تمتدُّ بك البيد اذا زلت منهُ سائرًا الى الغرب نحو نهر ڤولغا . والجهتان متشابهتان من حيث تركيب التربة وفسحة الاراضي واشكال النبات كانهما قُدّتا من اديم واحد . ولو شئت ان تلاقي بعض اختلاف في هيئة الطبيعة لما امكنك ذلك الّا ان تسير الى جهات بحيرة بيكال حتّى انَّ سيبرية نفسها لا تخالف روسية الّا في الأعراض فانها تبلغ الغاية من اوصافها

ثم انَّ لروسية مع وحدة هيئة صحاريها وحدةً اخرى تفرزها عن بقيّة اوربّة زيد تساوي جهاتها بالبرد والحرّ وهبّ الرياح اذ ان الحركات الجويّة تمتدُّ من اقاصي البلاد الى ابعد اطرافها بلا عائق ولا مانع . فاذا تنحت الشمال انتشرت في كل جهات روسية وبلغت البحر الاسود فهاجت بهِ مياههُ وماجت واتت بالويلات وكذلك الحرور فاذا هبّت شُعر بلفحاتها في البحور الشمالية . وروسيّة لسبب استواء بلادها وسعة اطرافها تذوق مرارة البرد القارص وضنك الحرّ اللافح لا يلطّفهما شيء فان بحارها أبعد واصغر من ان تخزن للشتاء حرارةً وللصيف رطوبةً وهي تبلغ من درجات البرد في الشتاء والحرّ في الصيف ما لا يبلغهُ في اوربّة بلدٌ آخر موقعهُ في عرضها . ودونك امثلةً تبيّن الامر حسيًّا انَّ معدّل درجات البرد في موسكو ١٠ درجات تحت الصفر في ميزان الحرارة امّا همبورغ التي هي على التقريب في عرضها فانَّ معدّل بردها درجتان وثمن المئة فوق الصفر . ومعدّل برد استرخان في الشتاء عند مصبّ نهر ڤولغا ٣٠° — ومعدّل حرّها ٤٠° + فيكون الاختلاف بين الطرفين ٧٠° وذلك فرقٌ جسيمٌ . والشتاء اطول في روسية من الصيف بكثير فربّما دام سبعة او ثمانية اشهر فانَّ ميزان الحرارة يبقى تحت الصفر في ڤارسوڤية ستّة اشهر وفي موسكو ستّة اشهر ونصف وفي اركنجلسك ثمانية اشهر . وعليهِ فيصدق في روسية لقبها التي عُرفت بهِ اذ دُعيت « بلاد الشمال » وذلك لبردها خاصّة

على انَّ الله خصَّ روسية بانهار واسعة الضفاف كانت لولاها بقيت في عداد مجاهل البلاد . والبعض من هذه الانهار كاد يبلغ سعة البحور وهي تنفذ في وسط روسية فتوصل بين جهاتها القاصية وتفتح لها ابواب العالم المتمدّن . منها الدنيپر الذي اضحى واديهِ ممرًّا عبر فيهِ التمدُّن البوزنطي مع النصرانيّة من القسطنطينيّة الى كياف . ومنها

نهر ڤولغا وهو اكبر انهار تلك البلاد واشهرها يدعوها الروس في اغانيهم « الامّ ڤولغا » يمتدّ حوضهُ وحوض سواعده في مساحة تساوي نحو ثلاثة اضعاف مساحة فرنسة. لكنّ منافعهُ محصورة بانصبابه في بحر لا منفذ لهُ وهو بحر قزوين. ولنهر ڤولغا خلجان متعدّدة فيها جُزُر لا تُحصى فيبلغ معها عرضهُ ١٥٠ كيلومترًا. وكما انّ روسية اضحت بوزنطيّة بنهرها الدنيبر كذلك صارت لسيوئيّة بنهر ڤولغا الذي عليهِ بُنيت حاضرتها موسكو. ومنها نهر نيڤا الشهير بمدينة بطرسبرج العاصمة الحالية التي ادخلت روسية في عداد الدول الاوربيّة. وهذه الانهار مع اختلاف وجهتها في السير تصدر من نقطة واحدة وهي مشارف جبل ڤلداي (ع ٣٥٠ م) ومنهُ تتشعّب كل الانهار الروسية فتصبّ في البحر الاسود وفي بحر قزوين وفي البلتيك ومنها ما يبلغ الاوقيانوس الشماليّ المتجلد

وقد عرفت ممّا سبق انّ الجهات التي تجري فيها هذه الانهار صحاري كثيرة الشبه في هيئتها وهوائها. الّا انّ مجاري الانهار تخصب بعض اقسام منها دون بعض فتزيد في غلّاتها وتغيّر احوالها الاقتصاديّة نوعًا. واذا استثنيتَ اطرافها التي لا يمكن سكناها امكنك ان تقسم الاملاك الروسية الى قسمين يميلان منحرفين من الغرب الى الشرق قسم منهما غنيّ بالغابات والاحراج والتربة النفطيّة (tourbières) والقسم الآخر اجرد ليس فيهِ سوى السباخ والفلوات القاحلة

واقصى البلاد الروسية موقعًا في الشمال واوسعها مجالًا انّما هي الجهات المزروعة بالغابات يدعوها الروس « poliéssa » تبتدئ عند الدرجة ٦٥ او ٦٦ من العرض الشمالي اعني عند البحر الابيض وتمتدّ الى ما تحت موسكو والى جوار كياف. وفيها اجناس الشجر تتوالى على حسب طبائعها واختلاف الهواء من الشربين والدردار والصنوبر والسنديان والزيزفون والبلّوط. ونصف هذه الغابات خاصّة الدولة واحد موارد ثروتها تتّخذ منها الاخشاب اللازمة لابنيتها ولسفنها ومعاملها لاسيّما معامل تصفية السكّر في پودولية ومعامل البوطاس. وقسم كبير من هذا الخشب يقنيهِ بالاصطلاء والوقود نحو مئة مليون من البشر في مدّة الشتاء الطويل وهو لا يقلّ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ متر مكعب. وزد على ذلك ما يُباع منهُ في الخارج وهو شيء كثير. على انّ هذه الغابات مع اتساعها لا تزال تقل سنةً بعد سنة وربّما قُطعت دون تروٍ فتلفت وتحوّل موقعها الى مفازات مقفرة

اما المنطقة الخالية من الغابات فغريبة المنظر وهي اشبه بالبوادي الاسيوية تشغل جهات روسية الجنوبية وتزيد اتساعاً على قدر امتدادها من الغرب الى الشرق وهي تتجاوز جبل اورال فتلتحق بقفار اسية . وهذه المنطقة كلها لا تكاد ترى فيها ربوة تبلغ مئة متر علواً الا ما شيدته اليد البشرية من ابنية وقبور ومعالم للطريق يعلوها الرعاة لمراقبة مواشيهم

وكما ان هذه البوادي لا جبال فيها كذلك لا ترى فيها اودية وانما السهول تنحدر طبقات طبقات الى مسايل الانهار كالدنيبر والدونة والفولغا وضفافها العالية على جانبها الايمن . اما الجداول ومجاري المياه المتوسطة فسيلها عادة قليل العمق تحفره المياه وسط السهول على حسب قوة مجاريها . ولا تكاد ترى في كل هذه المهامه شجراً او قرى الا ما ندر منها والقرى كلها على ضفاف الانهار عند منعطفاتها

على ان هذه المفاوز ليست كلها خالية من النبات جدبة . فان القسم الشمالي منها جيد التربة كثير الخصب وتربته سوداء ثم يليه قسم آخر اقل منه خصباً من جهة الجنوب الغربي الى جهة الشمال الشرقي . ثم آخراً قسم كثير الرمل تربته ممتزجة بالملح لا تصلح للزراعة

والمفاوز المسودة التربة تستحق ذكراً خصوصياً يدعونها « تشرنوزيوم » وهي التي تغني روسية بوفرة غلاتها ولعلها من اخصب بلاد الله واكثرها مرافق . اما سبب ثروتها فما يعلوها من الطين الاسود العلك ذي الدسومة سمكه بين ٥٠ سنتمتراً الى متر ونصف يتركب من الصلصال والكلس والمواد النباتية التي كانت في تلك الجهات سالفاً وهذا الطين اذا يبس اضحى غباراً ناعماً واذا ندي بالمطر تحول الى تربة سوداء لزجة تأتي بغلات طائلة كغلات حوض المسيسبي الذي يعد كاحد اغراء العالم . ومع هذا لا يحسن الفلاحون الروسيون حراثة تلك السهول ولو قابلت بين تربتهم الخصبة وتربة انكلترة الضاوية وجدت ان الفلاح الانكليزي ينال من ١٦ الى ٣٠ ضعفاً بدلاً من الواحد اما الفلاح الروسي فلا ينال اكثر من اربعة اضعاف في الواحد (١

---

١) راجع كتاب العلامة لوروا الذي اخذنا منه عدة فوائد : A. Leroy-Beaulieu : *L'Empire des Tsars.*

ويرى ارباب الفلاحة انَّ هذه التربة مع خصبها سوف تفقر بعد سنين ما لم تحسَّن بالسَّماد. لكنَّهم لا يخافون من الجدب والقحولة لانَّ بين هذه التربة السوداء والبحور الجنوبية سهولًا رحبة غنيَّة ايضًا بالتربة النباتيـة اذا أُصلحت وخُصَّت بالفلاحة كادت تُشبه بخصبها الاراضي السابق ذكرها. وموقع هذه الاملاك عند اسافل مجاري الانهار التي تنصبُّ في البحر الاسود وفي بحر ازوف تنمو فيهـا الاعشاب الى طول خمسة او ستَّة اقدام او اكثر لاسيَّما في السنوات الكثيرة الامطار حتى انَّ الزَّراعين يزعمون بان فرسان القزَّاق اختفوا وسطها فنجوا من اعدائهم وكذلك جيش كرلس الثاني عشر فانهُ تشتَّت شملهُ في هذه الادغال وتلف. وقد عرف الروس صلاحية هذه الاراضي للفلاحة فحرثوا منها قسمًا وألحقوها بالسهول المسودَّة التربة ولعلَّ كل هـذه الانحاء المشبة تستحيل بعد قليل الى مزدرعات فتبلغ عمَّا قليل اراضي الزراعة في روسيَّة مسـافةً لا تقلّ عن مليون او ازيد من الكيلومترات المربعة توازي ضعف مساحة فرنسة

امَّا الاراضي المالحة والسباخ الواقعة جنوبي التربة المُغلَّة المذكورة وشمالها كالبطحاء الواسعة التي تمتدُّ بين جبال اورال الى بحر قزوين فانَّها خلوة من كل نبات ولا يمكن اصلاحها للزرع

فترى جهل الذين يدعون بورًا كل سهول روسيَّة وبواديها كانَّها كلَّها متساوية في القحولة. والصواب انَّ الروس يخصُّونها برعية المواشي ويستغلُّون منها قسمًا كبيرًا وان كان عدد سكَّانها لا يتجاوز الاربعة في كل كيلومتر مربَّع

هذا نظر اجمالي في تلك البلاد الواسعة المتباسقة الاطراف فانَّ سهلًا واحدًا يجمع بين الغابات العظيمة والاراضي المغلَّة الخصبة والبور المالح الاجرد واذا زحف عليها الشتاء بخيله ورَجله غطَّاها كلَّها بكفن من ثلوجه البيضاء فجمدت وامكن الاهلين السير على المزالق من اقاصي البلاد الى اقاصيها فيقطعون عليها المسافة الواقعـة بين اركنجل واسطرخان. وكذلك الانهار العظيمة فانَّها توصل اطراف البلاد النازحة بعضها ببعض حتى ان المسافر يستطيع بوقت قريب ان ينتقل من نوفغورد الى كياف ومن موسكو الى قازان فكأنَّ الطبيعة نفسها اعدَّت هذه البلاد لتكون لدولة واحدة ولحاكم واحد فعدَّدت نحومها ذات الاطراف المتباعدة

٢ سكان روسية

اصل الشعب الروسي من العنصر الصقلبي فيدخل بذلك في عداد الامم المعروفة بالهندوجرمانية كاللاتينيين والجرمانيين . وفيه مع ذلك خلطٌ من عناصر اخرى مختلفة لما مرَّ على تلك البلاد من الامم الفاتحة . لاسيَّما ان ثغورهـا مفتوحة وهي الطريق اللاحبة للمهاجرين من آسية الى اوربَّة . وانَّما يمتاز بينهـا العنصر الفيني (finnois) والعنصر التتري بتي منهما حتى اليوم بقايا في بعض الجهات تشهد بملكهما السابق على البلاد . واذا اعتبرنا طرسبرج وجدنا موقعها في قلب المملكة الفينيَّة ولا يزال قسم كبير من الشعب الحدق بها فينيَّ العادات واللغة . وكذلك موسكو في عهد بنائها كانت في التخوم الفينيَّة

هذا وان الصقالبة لم يرقوا في معارج التمدُّن الَّا بعد اخوتهم من الاوربيين حتى انَّ اسم العبد في اللغات الاوربية (في الايطالية schiavo في الجرمانية sklave في الانكليزيَّة slave في الفرنسية esclave) مشتقٌ من اسم الصقالبة لكثرة ما استعبد منهم ملوك اوربَّة لاسيما الملك اوثون الكبير (٩٣٦—٩٧٣) بعد حروبهم . وانَّما الذنب لتأخرهم عن الحضارة ليس لهم بل هو لموقع بلادهم على ممرّ الغُزاة والفاتحين الاسيويين . قال مؤرخهم الحديث لوروا بوليو (ج ١ ص ٩٥) : انَّ الروس لوقوع بلادهم على اطراف اوربَّة ولاختلاف لغاتهم ودينهم عن بقية الاوربيين بقوا مدَّة اعصار متوالية بمعزل عن التمدُّن الاوربي كما انَّ آداب اليونان ورومية سالفًا لم تؤثر فيهم البتَّة . ومن ثم ليس لهم حصَّة في التقدُّم الحديث ونهضـة الشعوب الادبية وانَّما اخذوا ذلك عن السلالتين الأُخريين اعني السلالة اللاتينية والسلالة الجرمانية منذ زمن قريب فجعلوا اليوم ينشرون في الشرق هذا التمدُّن المستعار » . والحقُّ يقال انَّ الروس مع ما لهم من سعة الادراك لم يفيدوا الامم الاوربيَّة من ثمرة مساعيهم وعقولهم شيئًا وانَّما اذَّخروا لنفوسهم ما جنـاهُ غيرهم . وهم كثيرو التشبُّه بسواهم لهم في ذلك قوَّة عجيبة ونشاط غريب

ومن أعمل النظر في هيئـة الروس ودرس تقاطيع وجوههم وسحنتهم وخواص

اجسامهم ميّز بينهم ثلاثة اصناف على حسب ثلاثة اقسام البلاد اعني روسي الشمال (le Grand-Russien) وهو صغير الجسم ابيض اللون قوي البنية حادّ الطبع مركز موطنه مدينة موسكو. وهم اكثر الروسيين عدداً يبلغون نحو ٥٥ مليوناً. ثم روسي الجنوب (le Petit-Russien) وهو كبير الجسم ليّن الطبع متّقد الفهم. عددهم نحو ٢٠ مليوناً. ثم الروسي الابيض (le Blanc-Russien) المنسوب لروسية البيضاء وهو اقرب الصقالبة دماً واقربهم الى العنصر الاصلي وهو مع ذلك اذلّهم واقرهم. وعدد هؤلاء خمسة ملايين فقط. وبهذه اقسام روسية الثلاثة يتلقّب القياصرة باسم «ملك كل الروسيات». والامة مع ذلك واحدة تشبه بوحدتها سهول اوطانها المتناسبة التي وصفناها

ولمّا كان دخول التمدُّن في روسية لم يأتها الّا في الازمنة الاخيرة ترى الشعب اقرب الى خشونة الطبيعة وعاداتها الفطريّة قد اثّرت فيه احوال الهواء والتربة. قلنا انّ الغالب على روسية البرد القارس في معظم السنة. فان الروسي لا ينجو من جمود الدم في عروقه الّا بالحركة ولذلك ترى الاهلين في الشتاء ينقلون مرافق بلادهم في ذلك الفصل على العربات والمزالج تساعدهم على العمل الطرق المتجمّدة التي لا يجدون بدّاً منها في الربيع الّا الاوحال وفي الصيف الّا السكك المخدّدة. غير ان هذه الحركة وهذا النشاط يخمدان في آخر الشتاء. فترى الروسي يأوي الى بيته لا يبدي حراكاً في اشهر ذوبان الثلوج فترتخي عزائمه وتجمد حركته ويخلد الى الكسل والخمول

هذا وانّ برد البلاد يقتضي طعاماً مغذياً غنياً بالكربون والازوت ليحفظ في الاجهزة الحيويّة حرارتها المفقودة لكنّ طبيعة التربة فضلاً عن الفقر تضطرّ الجمهور بان يقتات في بلاده الشمالية بقوت اهل الجنوب كخبز الجاودار (seigle) والبرغل وطعام آخر وطني يدعونه شاتشي وهو ثريد من الملفوف المخمّر مع شيء من الفطر المجفّف والسمك المجمّد. وهذا لعمري لا يسدّ حاجة الاهلين ولذلك تراهم يستعيضون بالمشروبات ولاسيّما الكفاس (Kvass) وهو عصير الجاودار المخمّر والشاي لا يستغني عنهما احد مهما كان فقيراً. والشاي في روسية من المشروبات الطيبة التي يكثر من شربها الروس وحسناً يفعلون اذ انّهم يصلحون بها شوائب مياههم الشروبة. لكنّهم لا يكتفون بشرب الشاي صرفاً بل يمزجونه بصنفٍ من العرق او المزر

يتخذونهُ من الحبوب ويدعونهُ فدكا (Vodka) وهم يكثرون شربهُ حتى عُرف بهم وعُرفوا بهِ

ومن الاقاصيص العامة الشائعة في ذلك ان القيصر بطرس الكبير سأل احد جنودهِ ممَّن أراد مكافأتهم لبأسهم وحسن بلائهم : ماذا تطلب جزاء عن بسالتك أتريد تحفةً ثمينة او كيساً من الذهب او ارزاقاً واسعة ؟ قال الجندي : اني لا اكترث لكل هذه الهدايا هبني فقط ان اشرب مجاناً حاجتي من العرق في كل خمَّارات الدولة . فضحك القيصر واجازهُ . فهذه الرواية تصور بنوع حسي ولوع الروسيين بالمشروبات الكحولية يعتادونها منذ حداثتهم دفعاً لبرد الهواء

ومما يجنيهِ ايضاً عليهم المناخ انهُ يضعفهم ويدّ بنيتهم بما يحوجهم اليهِ من الاحتياطات فانهم اتقاء لنفحات القرّ وصرارة الشتاء يتزورن في بيوتهم و يجعلون لها الابواب الضخمة ويكومون حولها الرماد . وان كانوا اغنياء اتخذوا البيوت الدافئة ذات النوافذ المزدوجة ولهم المستوقدات الواسعة والكوانين ينضنضون حولها في النهار وينامون فوقها في الليل . فينتج عن هذه العادات ما لا يخفى من المضار للصحة كقلة النظافة والوخم واستنشاق الريح الفاسدة المزوجة بالحامض الكربونيك . هذا فضلاً عما يلحق بالآداب من الخرق بهذه العيشة المخالفة للطبيعة . ولذلك قد وصف بعضهم معاش الروس قائلاً : انَّ الحياة في روسية جهادٌ متواصل ضدّ الطبيعة فوق غيرها من البلدان لانَّ العدوّ فيها وهو البرد خصمٌ لا يمكن الفوز بهِ تماماً » . لكنَّ لهذا الجهاد منفعةً ايضاً اذ يتعلّم بهِ الاهلون الصبر وطول الاناة ويتجلّدون على التعب

وهذه المزايا التي ذكرنا تظهر ايضاً في الجنود فانَّ صبرهم على المتاعب وجلَدهم في الحرب لمن الامور المشهورة وانما شدَّتهم دفاعيَّة فقط ليس فيهم من التهوُّر ما يُرى في غيرهم من الاوربيين والامر مشهور في كل الجنود الروسية وهو في اهل روسية الشمالية اشهر واوضح . وجنود القرق انفسها لا تعتبر الحرب غالباً الَّا كغزوات يُباح فيها النهب والسلب . اما الفلَّاحون فانهم يحسبون فنّ الحرب كمنتهى الرقّ واقصى العبوديَّة ويأنفون من مخاطرها

ومن الاغاني الشائعة بين الجند اغنيَّة يتغنَّون بها في الحرب تدلُّ على ما سبق لنا

قولهُ (١ : « قامت الحرب على ساق . . . ولكن اين يكون منامنا . أننا ناوي في البيداء على الحضيض تحت القبّة الزرقاء . نرقد في الغابات الكثيفة نضطجع في الاحراج الظلمة نفترش الارض الرطبة ونجعل مهادنا أمنا الثرى ومصدغتنا قطعة من جذور الشجر . ونتقلل بالمطر الجود والقطر المتهاطل ثمّ نتشّف بنشّافة من النبات الغضّ » . وللجنود الروسية غير ذلك من الزجليّات الدالّة على كراهيتهم لاهوال الحرب . ولولا طاعتهم العمياء للقيصر وروحهم الديني لمّا خاضوا غمرات الوغى الّا مكرهين

ومّما طُبع عليهِ الروسيّ فضلًا عن جلدهِ وصبرهِ دماثة طبعهِ ومداراتهُ للزمان وتقلّبهُ مع الاحوال وغضّهُ النظر عن الأذى . وقد اتى العلّامة لوروا بوليو بشواهد متعدّدة على ذلك (ج ١ ص ١٥٣) نذكر منها القصّة الآتية :

في احدى ثورات اهل پولونية دخل الروس قرية پولونيّة فنهبوها . ثم احتلّ احد ضبّاطهم في بيت امرأة پولونيّة وجد فيها طفلًا صغيرًا فأخذ يلاطفهُ ويقبّلهُ . وكانت امّ الطفل حبلى فاغتاظت من فعلهِ واعتدّت ذلك كشتم فرفعت يدها ولطمتهُ على وجههِ . فليس فقط احتمل الضابط هذه الاهانة بل قدّم خدّهُ للمرأة واجاب الى صخبها فخرج من البيت . ثم سمع بعد مدّة بانّ المرأة ولدت صبيًّا فارسل هديّة للصغير كحلوان ليوم عمادهِ

ومن اخلاق اهل تلك البلاد ايضًا انّ عقلهم متّجه للعمليّات اكثر منهُ للنظريّات فانّ الروسي يرى في كل شيء غايتهُ القريبة وما ينجم عن فعلهِ من الفوائد

ومنها ايضًا روحهم الدينيّ فانّ العامّة منهم مطبوعون على المشاعر التقويّة وكل من شاهدهم في زيارة الاماكن المقدّسة تعجّب من تقواهم وحرارة صلاتهم وتراتيلهم الشجيّة . غير انّ هذا الدين تراهُ في الغالب فطريًّا لم يهذّبهُ التعليم ولم يستند الى درس وضعي . ومن ثمّ ربّما غالى الشعب الروسي في الدينيّات وافرط حتّى انهُ كثيرًا ما ينسب للارواح والجنّ ما لم يدركهُ عقلهُ القاصر . واذا اختلط الروسي

---

١) راجع تاريخ روسية لرَمبو (Rambaud : *Russie*, p. 691)

بقبائل سيبريَّة الهمجيَّة ربَّما اخذ عنها عاداتها الوثنيَّة . وقد وجد اصحاب الرحل الى تلك البلاد قومًا كثيرًا من الروس على ضفَّة نهر لنا يشاركون البوذيين وعبدة الاصنام في الدينيَّات . واذا دخلتَ بيت احدهم لقيتَ صورًا وثنيَّة كصورة الاله كولا (Kola) مجاورة لتصاوير القديس نيقولا وغيره من الاولياء .

ومن الآفات اللاحقة بالروسيين انَّ المدارس بينهم قليلة جدًّا فيغلب على الشعب الجهل . وكذلك الاكليروس بينهم فانهُ ليس بكفوٍ لإنذار الأمَّة لا يسعى في اصلاحها وخصوصًا الفقراء منها . وانهُ لامر معروف انَّ الرُّعاة في روسيَّة ويُدعون پوپا او پاپاس لم ينالوا للقيام بمهمتهم الاستعداد اللازم وهم منهمكون في شؤون دنياهم يتخلصون في سلك ارباب الدين لمصالحهم الزمنيَّة

والاحصاءات الرسميَّة تجعل عدد اهل روسية مع پولونية وفنلندة والقبشاق ١٠٨,٠٠٠,٠٠٠ منهم ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ من الارثدكسيين . على انَّ هذا الاسم يشمل عدَّة احزاب وشيع ليس لها من الارثدكسيَّة غير اسمها ولو أُحصي عدد اصحابها لتجاوز الوف الالوف . نخصُّ منها بالذكر الشيعة الكبيرة الفاشية بين الشعب اعني شيعة الرسكلنيكس التي تبلغ ١٣,٠٠٠,٠٠٠ وهم يُقسمون الى اقسام شتَّى وكأنهم لا يعترفون بالكنيسة الرسميَّة منفصلون عنها

لمَّا طبقات الاهلين العليا من اصحاب الثروة والمراتب السامية فقد تنشَّى بينهم منذ القرن الثامن عشر داء العصر من قلَّة الاكتراث للدين والمبالاة بامور النفس والآخرة . وانَّما يحافظون مع ذلك على ظواهر التديُّن مراعاةً للسلطة المدنية لما بين الدين والسياسة هنالك من العلاقة الشديدة . وكذلك قد انتشرت بينهم عادات السبريتيم كالموائد الدائرة ومناجاة الارواح وغير ذلك من البدع . ولعلَّ الشرَّ يتفاقم ان لم يتلافاهُ اصحاب الامر

(لهُ بقيَّة)